**دلالات دعوية من عفة الرسل عليهم السلام عن مال أقوامهم في ضوء سورة الشعراء([[1]](#footnote-2))**

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على خاتم النبيين, وعلى آله وصحبه أجمعين, أما بعد:

فإنّ العفة عما في أيدي الناس مِن أهمّ القِيم النبيلة التي رغّب الإسلام فيها؛ فإنَّ التعلُّقَ بالله سبب لكل خير، كما أنّ التعلق بغيره أعظم خذلان.

ولا يخفى على أحد أنّ الوعي الإسلامي في الزمن الحاضر في أمسّ الحاجة إلى تنمية الشعور بالعزة, فجاء هذا المقال لِيسلّط الضوء على أحد أوجه العفة الذي يغفل عنه كثير من الناس وهو العفة عن الكسب المالي, وذلك **من خلال** سورة الشعراء؛ لِيُسهم في إصلاح بعض جوانب الخلل التي اعترت العمل الدعوي, وسأخصص الحديث في هذا المقال في العناصر الآتية:

**\*المقصود بخلُق العفة**

عرّف ابن منظور العفّة **لغة بأنها:** الكفّ عمّا لا يَحِلّ ويَجمُل, والاستعفافُ: طلب العفاف, وهو الكفّ عن الحرام والسّؤالِ من النّاس.([[2]](#footnote-3))

أمّا العفّة في اصطلاح الشرع، **فقد عُرِّفت بتعاريف عديدة؛** والذي يعنينا في هذا المقال هو العفّة في مجال الكسب المالي فحسب, وعرّفها الإمام النووي بأنها التنزّه عما لا يباح، والكفّ عنه، وغِنى النفس، والاستغناء عن الناس وعمّا في أيديهم.([[3]](#footnote-4))

ومن خلال النظر في مفهوم العفّة، يتضح بأدنى تأمُّل أنّ مفهوم التعفف في مجال الكسب المالي في اصطلاح الشرع يوافق مفهوم التعفف في منظور القرآن الكريم, حيث استخدمت مادة التعفف في الذكر الحكيم أحياناً بمعنى العفة عن سؤال الناس, كما في قوله : }لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا{[البقرة: 273], فقد مدح الله في هذه الآية سادات الأولياء بكونهم أهل عفة عن السؤال على الرغم من فقرهم.

والمقصود بتعفف الرسل عليهم السلام عن مال أقوامهم في هذا المقال, هو دراسة الآيات القرآنية التي وردت في سياقتنزّه الرسل عليهم السلام عن طلب أيّ أجر دنيوي من أقوامهم مقابل ما بذلوه معهم من جهد في دعوتهم.

ومن الألفاظ التي وردت في كتاب الله الكريم, مما تدخل تحت هذا المسمَّى الاستعفافُ وعدمُ سؤال الأجر, ومن ذلك قوله : }وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ}]النساء: 6].

**\*نماذج من عفة الرسل عليهم السلام عن مال أقوامهم في ظلال سورة الشعراء**

الرسل عليهم السلام هم سادات المتعففين, وقد صرّح القرآن الكريم في عدد من الآيات اتفاق كلمة أنبيائه عليهم السلام في هتافاتهم بأنهم يبلّغون رسالات الله تطوُّعا, حتى صار ذلك شعاراً لهم, والمتأمل في سُور الذكر الحكيم, يجد أنّ سورة الشعراء هي أكثر السور تأكيداً على مسألة **تعفف** الرسل عليهم السلام **عما في أيدي الناس**, لذا سأخصص الحديث حول تصريح الرسل عليهم السلام بعدم سؤالهم الأجر من أقوامهم مقابل تبليغهم الرسالة من خلال آيات هذه السورة فقط.

فهذا نوح يعلن تعفُّفه عن مال قومه, وذلك في معرض بيانه لقومه عبادة الله : {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: 127].

وهذا لوط يعلِن تعفُّفه عن مال قومه, ويؤكد على مجانية الدعوة, فيقول كما حكى القرآن الكريم عنه:} [وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ](http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/tabary/sura26-aya164.html)}[الشعراء: 164].

وهذا هود يعلن تعفُّفه عن مال قومه, فيقول كما حكى القرآن الكريم عنه: }وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: 127].

وهذا خطيب الأنبياء شعيب يعلن تعفُّفه عن مال قومه, فيقول كما حكى القرآن الكريم عنه: }وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{[الشعراء: 180].

ونختم مسيرة الرسل عليهم السلام المباركة بصالح , فقد هتف في قومه بقوله:‏ }وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: 145].

**\*الدلالات الدعوية المستنبطة مِن عفة الرسل عليهم السلام عن مال أقوامهم**

المتأمل فيما سبق من تأكيد الرسل عليهم السلام على عدم تطلعهم لطلب أي ثمن مقابل جهدهم الدعوي؛ يجد أنه يتضمن دروساً بليغة للدعاة الربانيين, ومن أبرزها ما يأتي:

1**-التعفف عن أموال الناس شأن الرسل عليهم السلام جميعاً:** فالتعفّف عن أموال الناس هو من أهم معالم دعوة المرسلين؛ وهو دَيدن الرسل جميعاً، فالرسل عليهم السلام ضربوا أروع الأمثلة في عدم تطلُّعهم عما في أيدي أُممهم, وقد قَص الله علينا في كتابه العزيز جانباً من حرصهم عليهم السلام على تجرّدهم عن المصلحة الخاصّة, حيث تكرر التصريح بمجانية الدعوة على ألسنتهم خمس مرات, حتى بالحروف والعبارات بنصّها, وذلك على لسان كلٍّ من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام, فجميعهم صرّحوا طيلة أداء رسالتهم أنهم لا يطلبون على تبليغ الرسالة ثمناً من أي شخص, إنما يطلبون الأجر من الله الذي ابتعثهم, بل كانوا يُعطون ويبذلون من أموالهم الخاصة, ولا يأخذون شيئاً من حطام الدنيا, حيث كان شِعارهم علانية أنّ دعوتهم لم تكن من أجل الدنيا أو المال أو المنصب أو الجاه, إنما هي خالصة لله ، بل بلغ بهم الأمر أن قَرَنوا عدم طلبهم الأجرَ بعبادة الله وتقواه, وفي هذا دلالة بيّنة على أهمية مسألة الاستعفاف عن مسألة الناس.

وقد سار المصلحون على منهج المرسلين في الإياس من مسألة الناس, فها هو القرآن الكريم يحكي قصة الرجل الذي جعل علامةَ صدق الرسل عليهم السلام الذين أرسلهم الله إلى قومه, أنهم لا يَسألون قومه مالاً في مقابلة ما جاؤوهم به من الوحي والهُدى, كما ذكر : }وجاء من أقصا المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين \* اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون}[يس: 20-21].

وقد أدرك العلماء الربّانيون خطورة التكسب المادي من وراء العمل الدعوي, فها هو الإمام الحسن البصري رحمه الله يقول: "لا يزالُ الناس يكرِمونك ما لم تُعاطَ ما في أيديهم، فإذا فعلتَ ذلك استخفُّوا بكَ، وكَرهوا حديثك، وأبغضوك"([[4]](#footnote-5)), ونجد أيوب السَّختياني رحمه الله يقرر ذلك قائلا: "لا يَنْبُلُ الرجلُ حتى تكونَ فيه خصلتان: العفَّةُ عمَّا في أيدي الناس، والتجاوزُ عمّا يكون منهم"([[5]](#footnote-6)), ونرى الإمام فُضيل بن عِياض يؤكد ذلك فيقول: "لأَن آكُل الدُّنيا بِالطَّبل والمزمار أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَنْ آكُلُهَا بِديني",([[6]](#footnote-7)) وهكذا تتابع المصلحون على بذلهم الخير العظيم لأقوامهم مجاناً من غير طلب أجرة في مقابله, فأعزُّوا دينَ الله فأعزّهم الله, وكَتب لدعوتهم القبول, وجعل لهم في قلوب المؤمنين وُدّا, ومن هنا فإنه يندُر جداً أن تجد عالماً ربانياً من سَلفنا الصالحين إلا وتجد له صنعة أو تجارة يتكسب بها في معيشته؛ حتى تظلّ صورة الدعوة مشرِقة في نفوس المدعوّوين.

**2-تعفف الرسل عليهم السلام عن طلب مطلَق الأجر الدنيوي:** فالمتتبع في سِيَر الرسل عليهم السلام يلحظ تنزُّههم عن شبهة المصلحة الخاصة من وراء دعوتهم -سواء كانت هذه المصلحة معنوية أم مادية-, ومما يؤكد هذا المعنى مقالتُهم جميعاً: }وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ{؛ فإنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم.

ومن هنا ينبغي على من يتولَّوا أعمالاً دعوية, أن يحذروا من الوقوع في أي شبهة مادّيّة تضرّ بدعوتهم, فإنّ بعض الأجور المشبوهة ممن يُخصّ بها بعض الدعاة دون آخَرين تُغلّف بمسمّيات مقبولة, كمسمّى المكافآت والهدايا والعطايا والهبات ونحوها, لكنّ حقيقتها رشوة وثمن سيدفعه الداعية فيما بعد, ولربما كان هذا الثمن إسكاته عن بيان الحق في بعض القضايا.

**3-حِكم عديدة لتعفُّف الرسل عليهم السلام عن أموال الناس:** إنما كان الرسل عليهم السلام أشدّ البشر عفةً عما في أيدي الناس؛ ليكون ذلك أدعى لهم في قوّة حجّتهم؛ فلو أنّ الرسل عليهم السلام تكسّبوا من خلف دعوتهم لَأعرض الناسُ عن سماع صوت الدعوة, ولِمَا في ذلك أيضاً من ذلّ السؤال، وربما ذلّ الردّ بَعده, ويشتدّ قُبح المسالة إذا كان السائل ممن يشار إليه بالبَنان كالعالِم ونحوه, فكيف إذا كان رسولا؟, إضافة إلى أنّ البشر لا يستطيعون أن يَدفعوا الأجر كاملاً على الخير الكثير الذي جاءهم به المرسلون، فأيّ أجر سواء من دراهم او مناصب سيَعدِل الوحي والتوحيد والهداية؟ فضلاً عن أن طبائع الناس لا تنفُر ممن ينازعها في معيشتهم*؛* فإنّ طبيعة النفس الشحّ بالمال, كما أنّ أمر القيام بالتبليغ واجبٌ عليهم, كما أمَر خاتم رسله : }بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته{[المائدة: 67], وطلبُ الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقلّ الناس علماً, فضلاً عن الرسل الكرام عليهم السلام.

وعليه ينبغي على الدعاة والمصلحين خاصة أن يقتدوا بالمرسلين عليهم السلام في استغنائهم عن مسألة الناس, فإنّ تلك الأسباب التي دعت الرسلَ عليهم السلام إلى الزهد في مال أقوامهم هي الأسباب ذاتها التي ينبغي أن تدفع الدعاة إلى عدم التكسب من جمهورهم الدعوي.

**4-ترتب مفاسد كارثية من وراء التكسب من العمل الدعوي:** لقد تعفف المرسلون عليهم السلام عن سؤال الناس أيّ أجر مقابل ما بذلوه في سبيل هدايتهم من جهد دعوي عظيم؛ وذلك لإزالة أي عائق يحول دون سماع أقوامهم لصوت الدعوة.

ومما يدلل على ترتب **مفاسد سيئة** للتكسب من العمل الدعوي, محاولة بعض الإعلاميين إلصاق هذه التهمة المشينة زوراً بالدعاة المؤثرين؛ سعياً منهم لاسقاط الرموز الدعوية وتهميشها, لكن الواقع الدعوي يؤكد صحة بعض الاتهامات الإعلامية الموجهة لبعض الدعاة, فها نحن اليوم نرى عياناً بعض من تَولَّوا أعمالاً دعوية قد مزجوا العمل الدعوي بالطعم المادي, فضعُفوا عن مواقف الثبات في الدين, وسكتوا عن الصدع بكلمة الحق, بل تفوَّهوا بالباطل, وحرّفوا فهم النصوص الشرعية, وميّعوا الأحكام الشرعية القطعية, والتمسوا الأعذار للمفسدين, وتزلفوا للأقوياء والأثرياء, وروّجوا الفتاوى الشاذة, ومن هنا يحسُن بمن تولَّى عملاً دعوياً أن يحذر الولوج في هذا المأزق الخطير؛ وأن يقتدي بالمرسلين في ترفُّعهم عن حطام الدنيا وزينتها, فمن غير المعقول أن يعيش المرسلون عليهم السلام عيشة الكفاف، ثم بعد ذلك يثرى الداعون باسمهم هذا الثراء الفاحش!

حقاً لقد ظهر أمام أعيننا في الآونة الأخيرة فئام ممن تَولَّوا أعمالاً دعوية, مالوا عن مسيرة المصلحين من المرسلين، فجمعوا ثروة فاحشة من خلف الدعوة, حتّى صارت الدعوة لديهم عبارة عن استثمارات خاصّة, وصار أحدهم مجرد مندوب تسويق لشركات تجارية كبرى، بل بلغ الأمر ببعضهم ألاّ يستجيب إلى إلقاء محاضرات بقنوات فضائية إلا بعد تحويل مبلغ مالي مسبَقاً في حسابه الشخصي, وقد يكون ذلك عن حسن نيّة أحيانا, أو قلة ذات اليد؛ لكنّ مآلات ذلك على العمل الدعوي سيئة جدا!, ويؤكد ابن حجر تلك المفاسد فيقول: "إذا كان عالِماً ولم يكن عفيفا؛ كان ضررُه أشدَّ من ضرر الجاهل",([[7]](#footnote-8)) وبالتالي حقيق بالدعاة الربانيين أن يبتعدوا عن مواطن الشبهة؛ حتى يتأثر المدعوون بخطابهم الدعوي.

**5-عدم سؤال الرسل عليهم السلام الأجر الدنيوي لا يعني حرمة أخذ الداعية للأجر مطلقاً:** ينبغي ألا يُفهم مما سبق ذكره, أنه يحرُم على مَن تفرّغ للعمل الدعوي أن يأخذ أجراً بقدْر مُحدد يكفيه حاجته بغير استشراف نفس ولا اشتراط مسبقا, ما دام قصدُه ابتداءً الاستعانة به على البِرّ والطاعة والعيش الكريم، لا سيما إذا كانت العبادة متعدِّية النفع, ومن أصرح الأدلة الشرعية التي تبيّن مشروعية ذلك عموم قوله : "إنّ أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله"([[8]](#footnote-9))، مع التنبيه على أنّ الأكمل لمن أغناه الله أن يتنزه عن أخْذ شيء من متاع الدنيا مقابل بذْل ما أنعم الله به عليه من العلم الشرعي وسائر القُرب, كما تَنزّه الرسل عليهم السلام عن التطلع لحطام الدنيا, بل يحسن به أن يمتنع إن أُعطي شيئاً ولو من غير سؤال منه, ومن هنا ينبغي على الجمعيات الدعوية والمحسنين أن يقوموا بكفالة المشروعات الدعوية التي يقوم بها الدعاة الربانيون, وأن يعطوا الداعية راتباً يكفيه, حتى يحيى الداعية كريماً عزيزَ النفس.

والحق في هذه المسألة أن يُنظر لها من عدة جوانب, لماذا أُعطي هذا الأجر؟ ومَن الذي الذي عَرضه عليه؟ وما المناسبة لذلك؟ فإنّ الداعية الحكيم ينبغي أن يتفطن لكلّ ذلك, وأن يتطلع إلى الأجر العظيم الذي أعده الله له يوم القيامة, كما سأل الرسل جميعاً بمقالتهم: }إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وبعد؛ فهذا ما يسّر الله لي الوصول إليه في هذا المقال المتواضع، وأسأله أن يرزقنا العفة عما في أيدي الناس, وصلوات الله وسلامُه على أشرف خلْقه وتاج رسُله محمد وعلى آله وصحبه, والحمد لله ربّ العالمين.

1. **الأستاذ حمزة عبد الله سعادة شواهنة (باحث في الدراسات الإسلامية- فلسطين).** [↑](#footnote-ref-2)
2. انظر, ابن منظور: لسان العرب, مادة (عفف), (9/ 253). [↑](#footnote-ref-3)
3. انظر, النووي, أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري (ت: 676هـ): **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**, (بيروت, دار إحياء التراث العربي، ط2 – 1392ه), (10/ 77). [↑](#footnote-ref-4)
4. أبو نُعَيْم: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**, (3/ 20). [↑](#footnote-ref-5)
5. ابن أبي الدنيا: **مداراة الناس**, باب التودد إلى الناس, حديث رقم (34), (ص: 46). [↑](#footnote-ref-6)
6. البيهقي, **شعب الإيمان**, كتاب تحريم أعراض الناس وما يلزم من ترك الوقوع فيها, باب إخلاص العمل لله عز وجل وترك الرياء, حديث رقم (6530), (9/ 204). [↑](#footnote-ref-7)
7. ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**, (13/ 149). [↑](#footnote-ref-8)
8. البخاري: **صحيح البخاري**, كتاب الطب, باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم, حديث رقم (5737), (7/ 132). [↑](#footnote-ref-9)